﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ [الأحزاب: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ نَقْضِ المنافقين العهدَ بعد ذِكْر مسارعتهم في الفتنة

لَمّا بيَّنَ ﷻ حالَ المنافقين في إتيانِهِمُ الفتنةَ والمسارعةِ في فعلِها، وكان قد أظهرَ في موضعِ المذمَّةِ لهم إجابتَهم إلى الفرارِ من ملاقاة الأعداء، حتَّى إنَّهم في ذلك كمَنْ أعطى ما كان في يدِه منه غلبةً وجُبْنًا - وقد كان لهذا عند العربِ مع ما لهم من النَّجدةِ والخوفِ من السُّبَّةِ ما لا يكادُ يُصدَّق - أتبعَ ذلك مؤكِّدًا سوءَ ما هم عليه لأجلِ ما لهم من الإنكارِ والحَلفِ بالكذِب، ممّا يُضيفُ إلى سجلِّ مثالبِهم ما هو أشدُّ سوءًا، فقال: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ﴾ هؤلاء الَّذين أسرعوا الإجابةَ إلى الفرارِ ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ الَّذي لا أجلَّ منه مِن قبل هذه الحالةِ وهذه الغزوة، لا يوَلّونَ أدبارَهم أبدًا لشيءٍ من الأشياءِ خاصَّةً في أرضِ المعركة، وكانَ الوفاءُ بعهدِ الله أوْلَى من غيرِه وألْزم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوَلُّونَ﴾: (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ عن قُرْبٍ، من ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقال: جَلسَ ممّا يَليني، أي: يُقاربني، وولَّيْتُ وجْهي كذا: أقبلتُ به عليه، وإذا عُدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقْتضَى معنَى الإعراضِ وترك القُربِ، وهو المعنى المُراد في الآية.

2) ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾: (دبر) تدلُّ تصريفاتُهُ على آخِرِ الشَّيءِ وخَلْفِه[2]، ومنه الدُّبر، وهو نقيضُ القُبُل مِن كلِّ شيءٍ[3]، ومنه أدبارُ السُّجود،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 309 - 310.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) الحميري، شمس العلوم: (دبر).

وهي أواخرُ الصَّلوات، وإدْبارُ النُّجوم: عند الصُّبْحِ في آخرِ اللَّيْل[1]، ومن ذلك يُقال: ولّاهُ دُبُرَه؛ إذا انْهزَم، وقولُه تعالى هنا: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، أيْ: لا يَفرّون من قتالِ الأعداء، ولا ينهزمونَ بسببٍ منهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكِّرهمُ اللّهُ ﷻ بما كانوا عاهَدوهُ ﷻ عليه من قبلِ هذا الخوفِ ألّا يوَلّوا الأدبارَ، ولا يَفرّوا مِنَ الزَّحْف، ولا جرم أنَّ اللّه ﷻ سيسألُهم عن ذلك العهدِ سؤالًا حتمًا[3]، هل وفَّوا به أم أضاعوه؟

مَنْ عاهدَ اللهَ؛ وجبَ عليه الوفاءُ بعهدِه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبيرِ بالواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ﴾ عاطفةٌ لجملتِها على ما تقدَّمها، في قولهم: إنَّ بيوتَنا عورةٌ، وفي إتيانِهمُ الفتنةَ، وهي تفيدُ القسمَ وتأكيدَ أنَّهم همُ الَّذين تقدَّم ذكرُهم من قبل[4].

دلالةُ اللّام و(قدْ) في ﴿وَلَقَدْ﴾:

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ لام القسَم، و(قدْ) حرفُ تحقيقٍ، وكلاهما يفيدُ تأكيدَ هذا الخبر في قوله تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية[5].

غرضُ التَّوكيدِ مع أنَّ الخطابَ للمؤمنين:

وتأكيدُ هذا الخبر – مع أنَّه موجَّهٌ إلى المؤمنين – تنزيلٌ للسّامعين منزلةَ مَنْ يتردَّدُ في أنَّهم عاهدوا اللّهَ عَلى الثَّبات[6]، وفيه إشارةٌ عامَّةٌ للمسلمين وغيرهم، أنَّ كلَّ صاحبِ عهدٍ سيُسأل يومَ القيامةِ عن عهدِه، هل وفَّى بما عاهد عليه؟

تنزيلُ السّامعين منزلةَ المتردِّدين في ثباتِهم على عهدهم

(1) الخليل، العين: (دبر).
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 374، والزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 254.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 422.
(4) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 22، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 407.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.

نكتةُ دخولِ (كان) على الماضي ﴿عَٰهَدُواْ﴾:

دخولُ (كان) على الفعلِ الماضي ﴿عَٰهَدُواْ﴾ لتأكيدِ هذا الخبر، وتأكيدِ تحقُّقِ عهدِهم الَّذي ضربوه على أنفُسِهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في قوله: ﴿عَٰهَدُواْ﴾:

العهدُ قديمٌ، وهو بمعنَى القَسَم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بقوله تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك العهدَ قديمٌ مستقرٌّ، وهو عهدُ يوم أُحُدٍ، حيث كانوا يومَ أُحُدٍ قد جَبُنوا، ثمَّ تابوا، وعاهدوا النَّبيَّ ﷺ أنَّهم لا يولّونَ الأدبارَ في غزوةٍ بعدها، وهم بنو حارثةَ وبنو سَلَمة[2]، وفيه كذلك إشارةٌ إلى أنَّ ﴿عَٰهَدُواْ﴾ هنا بمعنَى: أقْسَموا، وفيه تأكيدٌ للخَبَرِ بعهدِهم ذاك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بمعاهدتِهمُ اللهَ مباشرة:

تذكيرُهم بعهدِهم، وزجرُهم على نَقضِه

أُسنِدَ عهدُهم إلى اللهِ مباشرةً في قولِه تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للإشارةِ إلى ما تقدَّمَ منهم في غزوةِ أُحدٍ، حيث جَبُنوا، ثمَّ تابوا إلى اللهِ، وعاهدوه في حينِها أنَّهم لا يولّونَ الأدبارَ في غَزْوةٍ بعدَها، وهمُ الَّذينَ نزلَ فيهم قولُه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: 122]، فطرأ على نفَرٍ من بني حارثةَ نفاقٌ وضَعفٌ في الإيمان، فذكَّرهمُ القرآن بعهدِهم مع اللهِ الَّذي لا أحدَ أجلُّ منه ﷻ، فقال: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾، وأراهم أنَّ منهم فريقًا قُلَّبًا لا يَرْعى عهدًا، ولا يستقرُّ لهمُ اعْتقاد، وأنَّ ذلك لضَعفِ يقينِهم وغَلَبةِ الجُبْنِ عليهم حتَّى يَدْعوهم إلى نَبْذِ عهدِ اللهِ، وهذا تنبيهٌ للقبيلتَيْن - بني حارثةَ وبني سَلَمة - ليَزجُروا مَن نكثَ العهدَ منهم[4].

معنَى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبْلُ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ بيانيَّةٌ، تفيدُ كشفَ الوقتِ الَّذي أبْرموا فيه عهدَهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(3) العكبري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 191.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 309، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.

فائدةُ الظَّرفِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مع كَوْنِ الأفعالِ ماضية:

لَمّا كان العهدُ ربَّما طال زمنُه، فَنُسي، فكانَ ذلك عُذرًا لصاحبِه؛ بيَّن قُرْبَ زمنِه بعد بيانِ عظمةِ المعاهَدِ اللّازمِ منه ذِكْرُه، فقال مُعبِّرًا عن هذه الحالة، والزَّمن الَّذي حدثَتْ فيه: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾[1].

موقعُ جملة ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ وفائدتُها:

جملةُ: ﴿يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ جوابٌ للقَسَم[2]، وهي بيانٌ لجملة: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾[3]، كأنَّه قال: واللّه لقد كانوا عاهدوا اللّهَ العظيمَ منذُ زمنٍ قريبٍ ألّا يولّوا الأدبارَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يُوَلُّونَ﴾:

تجدُّدُ تولّي المنافقين عنِ الجهاد واستمرارُه

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿يُوَلُّونَ﴾ على تجدُّدِ تولّيهم عنِ الجهادِ في سبيلِ اللّه ومقارعةِ الأعداء، فهو دَيْدَنُهمُ المستمرّون عليه، والفعلُ المضارع يدعوهم إلى تذكُّرِ هذا العهدِ وتجدُّدِهِ؛ كلَّما تجدَّدت عندهم إرادةُ تولّي الأدبار.

نكتة ذِكْرِ(أل) في ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾:

عمومُ الأدبار لا سيَّما ما عهد منهم من تولّي الأدبار قبل ذلك

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ للاستغراق، باعتبار أنَّ العهد أُخِذَ عَليهم وعلى مَنْ بعدهم منهم، كأنَّه قال: لا يولّون أيَّ تولٍّ لكلِّ الأدبار، وهي للعهدِ أو لجنسٍ مخصوصٍ، أي: لا يولّون أدبارَهم أبدًا لأيِّ شيءٍ مِنَ الأشياء[4].

بلاغةُ جمعِ الأدبارِ على هذا الوزن:

قلّةُ عددِهم وضعف أثرهم

(أل) في ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ قد تكون عوضًا عن المضاف إليه، أيْ: لا يولّون العدوَّ أدبارَهم، وإذا كان الجمعُ الَّذي يضاف إلى المعرفةِ يفيد العموم؛ فمرجع الضَّمير إليهم - الذي هو (أل) في الحقيقة - إشارة إلى أنَّهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.
(2) العكبري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 191.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.

قلَّة، لا قيمةَ لهم، كما أنَّ الأدبار جمعُ قلَّة، وإذا كانوا قليلًا وولّوا الأدبارَ، فإنَّ أثرَهُم ضعيفٌ، لا يفتُّ في عضدِ المسلمين، ولا يوهنُ مِن قوَّتِهم.

بلاغةُ الكنايةِ في تَوْليةِ الأدْبار:

مَـنْ ولَّى دُبُـرَه؛ فرَّ مِـنَ الزَّحْـفِ، وانْهزم

توليةُ الأدْبارِ في قوله تعالى: ﴿يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ كنايةٌ عنِ الفرارِ والانْهزامِ، فإنَّ الفارَّ يولّي دُبُرَه ممَّن فرَّ منهُ[1]، فلا يكونُ لهؤلاء المُدبرينَ عَمَلٌ إذا حَميَ البَأْس، وتخالطَ النّاس، واحْمرَّتِ الحُدُق، وتَداعسَ الرِّجال، وتعانقَ الحُماةُ الأبطالُ إلى الظَّفرِ أوِ الموت[2].

بلاغةُ الواو في قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ﴾:

تـأكـيـدُ وجـوبِ الوفاءِ بعهدِ الله

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ عاطفةٌ لجُملتِها على ما تقدَّمها؛ تذييلًا لجملةِ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾؛ تأكيدًا لضرورةِ الوفاءِ بالعهدِ مع اللّهِ، وهو خيرُ العهودِ وأوْثقُها، فلا بدَّ من إنفاذِه وإنْجازِه[3].

نكتةُ دخولِ (كان):

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: (كانَ) لتحقُّقِ الوقوع، أي: كان عندَ اللّهِ تعالى مسؤولًا عنِ الوفاءِ به، أو مسؤولًا مقتضًى حتَّى يوفَّى به[4].

غرضُ إضافةِ العهدِ إلى لفظِ الجلالةِ:

أهميَّةُ العهدِ مع اللـه، وضـرورةُ الوفاءِ به

إضافةُ العهدِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿عَهْدُ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على أهميَّةِ هذا العهد، فهو ليس كأيِّ عهدٍ من العهود، وذلك أنَّ الإنسانَ قد يتهاونُ بالعهدِ لإعراضِ المعاهَدِ عنه، لكنَّ هذا لا يكونُ مع اللّهِ الَّذي هو محيطٌ بصفاتِ الكمال، وفي هذا الإسنادِ للفظِ الجلالة تنبيهٌ على ضرورةِ الوفاءِ بالعهدِ معه ﷻ[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 159.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 159.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَسْـُٔولًا﴾:

اسمُ مفعولٍ وصاحبُ العهد مطلوبٌ للحساب

﴿مَسْـُٔولًا﴾: اسْمُ مفعولٍ من (سأل)، وهو مَنْ يقعُ عليه تَبِعةُ عملٍ أو وفاءٍ بعهد، فهو مطلوبٌ لإنجازِ عملِه والوفاءِ بعهدِه[1]، وبهذا تتحقَّقُ المسؤوليَّةُ على عاتقِ مَن عاهدَ بضرورةِ الوفاءِ بما أبرَمَه من عهدٍ، وبهذا - كذلك - يكونُ المسؤولُ مطلوبًا للحساب، هل وفَّى بعهدِه، أمْ لم يوفِّه؟[2].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿مَسْـُٔولًا﴾:

المسؤولُ محاسَبٌ فمُثابٌ أو مُعاقَبٌ

﴿مَسْـُٔولًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ كنايةٌ عن المحاسَبِ عليه[3]، كقولِ النَّبيِّ ﷺ: «وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه»[4]، وهو كقولِه تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾؛ لأنَّ المسؤولَ سيُحاسب على ما سُئِلَ عنه، ويُثاب على ذلك، أو يُعاقب، وفي هذه الكنايةِ تهديدٌ ووعيدٌ لمن غدَرَ بوعدِه مع اللهِ، ولم يوفِّهِ[5]، أيْ: سيسألُ عن عدمِ الوفاءِ بعهدِه، ويعاقب على ذلك.

نكتةُ تقديمِ العهدِ أوَّلًا وجعلُه مسؤولًا ثانيًا:

العنايةُ بالعهدِ، ومسؤوليَّةُ الوفاءِ به

لَمّا كان العهدُ فَضْلةً في الكلامِ لكونِه مفعولًا، واشْتدَّتِ العنايةُ به هنا؛ بيَّن ذلك بتقديمِه أوَّلًا، أيْ: في قوله: ﴿عَهْدُ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ بجعلِه العُمدةَ، وإسنادِ الفعلِ إليه ثانيًا، فقال: ﴿مَسْـُٔولًا﴾، أي: في أنْ يوفّي به ذلك الَّذي وقعَ منه[6].

فائدةُ الجملةِ الخبريَّةِ: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ تذييلٌ لجملة: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ يُخبرُ بضرورةِ الوفاءِ بالعهدِ مع اللهِ، ويوحي بالتَّهديدِ والوعيدِ لمن لم يلتزمْ بالعَهد، ولم يوفِّ بالوَعد[7].

(1) أحمد عمر، معجم اللُّغة العربيَّة: 2/ 1020.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 254، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 407.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(4) البخاري، الصَّحيح، حديث رقم: (2554)، ومسلم، الصَّحيح، حديث رقم: (1829).
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 462.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 462، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»